الفتاة المفقودة

رواية تاريخيَّة عربها بتصرُّف الاب لويس شيخو اليسوعي (تتمة)

٥

فما وقع نظر موريس على هذه الاسطر حتى طار قلبهُ شعاعاً وظنَّ انَّهُ قرأ فيها حكم موتهِ ومن ثمَّ كاد فعلها في نفسهِ اسرع من شرارة النار في بعض مخازن البارود فصرخ صرخةً عظيمة وسقط متلاشي القوى لا يبدي حراكاً

مرَّت الساعات على المسكين وهو لاصق بالحضيض كأنَّهُ ميت ولم يفق من غشيتهِ الَّا في اصيل النهار فشعر بضعف لا يوصف وكان جسمهُ مبتلًّا بعرق بارد فلم يقوَ على النهوض ثمَّ حدَّق ببصرهِ الى سجنهِ فاذا بالهرّ الذي رآهُ في غلس ذلك اليوم رابض في قرنتهِ . فاحيا منظر هذا الحيوان الألوف مِنَ آمال موريس وشدَّد قواهُ فنهض اليهِ ليمسكهُ ويتخذهُ لهُ انيساً في وحدتهِ

لكن هذا الهرّ كان وحشيًّا لا يمكن منهُ احداً فما احسَّ بحركة موريس حتى وثب الى الكوَّة وفرَّ هارباً قبل ان يمسهُ السجين

فبقي التعيس وحدهُ باذاء جثة الفتاة لا يجد حيلةً للخلاص ولا وسيلةً للنجاة

ثمَّ عاد الى الورقة التي قرأها صباحاً وتأمل تاريخها فاذا هو ٢٨ حزيران سنة ١٧١٥ وتذكَّر التاريخ الذي قرأهُ في الحديقة على الصليب الذي نصبتهُ امُّ الفتاة يوم فقدانها فكان ٢٥ حزيران فاستنتج من هذا الفرق انَّ لويسًا دي براكنتال باتت في سجنها ثلاثة ايام تتضوَّر . . . حتى ماتت جوعاً

فاخذ موريس يفكر في نفسهِ ويرى ما ينتظرهُ بعدُ من الاوجاع والعذابات فقام يدور كالسبع في قفصهِ يطلب لهُ مناصاً حيث لا يُؤمَل مناص

ثمَّ قبض الاسلحة المعلَّقة في الجدار وعالج بها باب سجنهِ لكنَّها تكسَّرت بين يديهِ لفعل الصدأ فيها . فصار يضرب بقطعها الباب ليُسمع لها صلصلةً ويشعر بهِ احدٌ من خارج . فما كان لفعلهِ من فائدة

فنصب ثانية اثاث الغرفة ونضَّد بعضها فوق بعض لعلهُ يدرك الكوَّة ويرى منها ما يحيط بالسرب فيمكنهُ بذلك ان يشعر الناس بمحلّ سكناهُ فذهبت كلُّ مساعيهِ ادراج الرياح

وفي تلك الساعة نفذ شعاع الشمس من كوّتهِ فنظر الى جثة لوسيا ورأى اسنانها المعرّاة من الجلد فخُيّل لهُ انها تقهقه وتسخر من كدّهِ الباطل. فزادهُ هذا المنظر حزنًا وهلعًا فاتروى الى ناحية وجلس مختبيًا ورأسهُ على ركبتيهِ فاستمرّ على ذلك زمنًا طويلًا وهو غائص في بحر الافكار التي كانت تتناوبهُ فتذيقهُ الموت الوانًا

وبلغ بهِ يأسهُ الى ان قام وهو فاقد الرشد واخذ قطعة من الاسلحة التي القاها على الارض لينتحر ويتخلّص من هذه البلايا المحدقة بهِ. الّا انّ نظرهُ وقع على صليب الذهب المتعلّق في عنق الفتاة فتذكّر تعاليم امّهِ الصالحة ومن وقتهِ القى عنهُ السلاح وجثا راكعًا يستميح من الله غفرانًا عن ذنبهِ ومسلمًا نفسهُ لارادتهِ تعالى عملًا بما قرأ في رقعة لوسيا دي براكنتال

وكان في اثناء ذلك قد اجهدهُ العطش وتقلّصت شفتاهُ فاخذ يمصّ منديلهُ فلم يستخرج منهُ سوى نُقَيطات قليلة لم تكفِ لتنقع غلّتهُ فصبر وعمد الى آخر كسرةٍ من الخبز كان ابقاها في جيبهِ فاكلها بعد الجهد الجهيد ليس ريقهِ

ثمّ جلس مسندًا ظهرهُ الى الجدار وكان يخاف ان يستولي عليهِ الكرى فينام نومًا لا يقظة لهُ بعدهُ الّا انّهُ لم يمكنهُ ان يردّ هجمات هذا العدوّ اللطيف فاستسلم اليهِ ونام نومًا مضطربًا وتقلّب عدّة ساعات على الحضيض تنتاب مخيّلتهُ الاحلام المزعجة

فلمّا تنفّس الصباح انتبه وكان اوّل فكرهِ انّهُ بلغ يومهُ الاخير لما احسّ من انحلال قواهُ. لكنهُ تسلّح باشارة المسيحي وجثا مصليًا امام صليب الذهب ومجدّدًا تقدمة نفسهِ الى الله ليصنع بهِ ما يشاء

وما كاد يتمّ هذا الفعل التقويّ حتى سمع خرخرةً في سجنهِ فنظر واذا بالهرّ قد عاد الى مكانهِ المألوف وهو هذه المرّة نائمٌ يغطّ في نومهِ

ففكّر موريس كيف يمكنهُ ان يتّخذ هذا الحيوان كوسيلة لنجاتهِ من الورطة التي وقع فيها

فصلى الى الله من صميم قلبهِ ليلهمهُ ما يفعل واذا بفكر عنّ لهُ اعتدّهُ المسكين كوحي من الله

واذ رأى نفسهُ على رمق اخذ يزحف بكلّ لطف وهدوّ الى جهة الهرّ بحيث لا يسمع لهُ حسًا. فلمّا بلغ قريبًا منهُ نزع صُدْرتهُ ورماها عليهِ بكلّ خفّة

فاذ شعر الثور بهذا الغطاء هم بالفرار لكنّ موريس القى بنفسه عليه وصدّه بما بقي لديه من القوة. وكان الهرّ يمرّ ويضطرب بين يديه ليفلت منه بيد انّ القنوط زاد في قوة موريس فتمكّن منه وضبطه تحت صدره

ثمّ اخرج منديله من جيبه وربطه بذنب الحيوان ربطاً وثيقاً. وكان الهرّ في اثناء ذلك يزيد شراسة وقلقاً حتى انّه خدش يدي موريس باظافره فسال دمه لكنّه لم يُبالِ بالالم حتى أتمّ ما باشر به. ثمّ ضبط الهرّ الى طلوع النهار فسرّح عنه

فخرج الهرّ من الكرّة كالبرق ناجياً بنفسه من يدي السجين وساحباً المنديل بذنبه

فلمّا توارى خرّ موريس ساجداً لله وشكره من صميم القلب على نجاح عمله واعتدّه الهاماً سويّاً منه عزّ وجلّ وجزاء على تسليم امره لمشيته تعالى. وكان صراعه للهرّ قد انهك بقيّة قواه فتمدّد على الارض طريحاً ينتظر بفروغ الصبر نتيجة عمله

٦

وسائلٍ يسأل وماذا جرى لرفقة موريس واهل القصر بعد غيبة صديقهم

حدّث عن حزنهم ولا حرج. فانّهم اذ رأوا في مساء ذاك النهار المشئوم انّ رفيقهم غاب عن العيان طلبوه في انحاء القصر طلبهم لليتيمة المفقودة ولم يدعوا حجرة الّا زاروها ولا زاوية الّا وتفقّدوها

فلمّا آيسوا من لقيانه ظنّوا انّه وقع هو ايضاً في الوادي المجاور للقصر كاوسيا دي براكنتال بعد ان تعدّى الدرابزين الذي امرت السيدة بنصبه على حافة الهوّة. وقضوا ليلتهم تلك في كدر لا يوصف ولم يمكن احداً منهم ان يذوق راحة الوسن

وعند الصباح استأنفوا التفتيش على الفتى الضائع وهبطوا الى الوادي رجاء أن يجدوا فيه بقايا موريس فيدفنوه باكرام. فكان تعبهم بلا جدوى ولم يجدوا لصديقهم اثرًا

ثمّ ارسلوا واخبروا السيدة دي براكنتال بمصابهم فجدّد هذا الخبر في قلبها اللوعة على موت فتاتها وبكت على موريس بكاء الام على وحيدها

واوعزت الى بعض اهل القرى ان: « اصعدوا الى قصري وأفرغوا كنانة الجهد لعلّكم تُلفون الصبي حيّاً او ميتاً » فاجابوا الى امرها وقضوا صلب نهارهم في البحث عن الشريد فعادوا آيسين من وجدانه وهم يزعمون انّ الجنّ اختطفته

فلمّا رأى اصحاب موريس انّ صديقهم فُقد ولم يبقَ له امل لاكتشافه بكوه

بكاء مرًّا وعوّلوا ان يقيموا لهُ بقرب مشهـد لوسيًّا دي براكنتال صليبًا يكتبون عليهِ اسمهُ مع تاريخ وفاتهِ المزعوم

وفي صباح اليوم التالي اجتمعوا لإتمام ما اعتمدوا عليهِ فقدموا باكرًا الى مكان الحديقة حيث نُصب ضريح لوسيًّا وهم يردّدون عبارات الاسف على فقد رفيقهم

فبينما هم على ذلك يقرئون موريس الوداع الاخير اذ خرج الهرّ من الكوّة كما ذكرنا وفي ذنبهِ منديل السجين . فنظرهُ الحضور ولحظوا الجهة التي منهـا طفر . فتبع ابن الحاجب الحيوان المذنّب ولم يزل يسعى وراءهُ حتى ادركهُ

فلحقت بهِ الجماعة واستدارت حولهُ لترى ما الامر . فحلّوا المنديل وفحصوهُ فاذا عليهِ مرقوم « م . د . » ليس الّا

فصرخ احد الشبّان : « موريس دي واباستين » . ابشروا اصدقائي انّ رفيقنا حي وهذا منديلهُ هيّا بنا ندقّق البحث عنهُ ولنسرع قبل ان تدركهُ المنيّة

فما قال هذا الكلام حتى وثب الجميع الى حيث رأوا الهرّ نافذًا

فاخذ بعضهم يراقبون عرصةً كثر فيها الردم وطالت الاعشاب كانت على جانب الحديقة يرمي اهل القصر عندها حطام الدار . فاذا بكوّة زجاجيّة نسجت عليها العناكب وعلتها الغبرة فنظروا منها فرأوا الغرفة التي كان فيها موريس وهو بين حي وميت

وكان الاخرون استمانوا بالحبـال حتى وصلوا الى جهة جدار القصر المشرف على الوادي فنظروا الكوّة المستطيلة التي منهـا وثب القط فتحقّقوا ايضًا انّ هنالك حجرة مجهولة وانّ فيها الفتى الضائع

فتباشر الفريقان بما وجداهُ وتشاوروا في اقرب طريقة لانقـاذ الفتى من مكروههِ وتنفيس كربتهِ . فكان رأي الجميع ان تُفتح الغرفة من كوّتها العليا

فعمدوا من ساعتهم الى المعاول وانتزعوا زجاجة الكوة واقتلعوا بعض الحجارة ثمّ ربطوا الحاجب بحبل وانزلوهُ الى ذلك النّفق الخفي فاخذ بين ذراعيهِ موريس وانتشلهُ من قبرهِ وصعد بهِ الى ساحة الدار

وكان نوع من السبات قد استولى في تلك الاثنـاء على حواسّ الفتيد فلم يكد يشعر بما جرى لهُ فاضجعوهُ على فراش وثير وتداركوهُ ببعض الادوية المنعشة صبّوا منها نقطًا في فمهِ حتى فتح عينيهِ بعد قليل ورأى حولهُ الاقارب والاصحاب يتهلّلون فرحًا

لنجاتهِ بعد ان استطار لُبهم روعاً لفقـدهِ

ولمَّا عادت الى المسكين قواهُ قصَّ عليهم تفاصيل خبرهِ فتوجَّعوا لهُ واثنوا على جميل صبرهِ. ثمَّ جثوا جميعاً ساجدين وقدَّموا للربِّ الشكر على ما أنعم بهِ عليهم من خلاص الفتى الشريد

بعد ذلك اخبروا السيدة دي براكنتال بوجود جثة ابنتها فاسرعت الى القصر وهنَّأت موريس بنجاتهِ ثمَّ تولت بسلَّم الى الغرفة حيث كانت كريمتها وهي لابسة ثياب عرسها فاذرفت عليها الدموع السخينة ووضعت بقاياها في تابوت واقامت جنازة حافلة لراحة نفس ابنتها. وكانت استدعت لهذه الجنازة الكاهن الذي بارك اقترانها يوم عرسها واردعوها اللحد آسفين على غصن شبابها المنقصف

ثمَّ امرت السيدة بان تهدم تلك الحجرة المشؤومة لئلا يبقى لها اثر

فلمَّا حضر الفعلة اخذوا موريس كدليل يرشدهم الى الدهليز ومدخل السرب ففتحوا الباب بلا عناء لكنهُ اطبق من تلقاء ذاتهِ بعد اجتيازهم. فلمَّا سمع موريس صوت الباب تذكَّر ما حلَّ بهِ سابقاً فارتجف مرتعباً. فعاد الفعلة يريدون فتحهُ فلم يستطيعوا واضطروا ان يخرجوا من الكوة العليا ويعودوا الى الباب من الدهليز ففتحوهُ ثانيةً واقتلعوهُ فوجدوا رخامة كان البارون دي ادراي جعل تحتها ادوات واثقال وبكرات عديدة كانت تحرِّك الباب وتقفلهُ بعد فتحهِ فاخرجوها وتعجبوا من حذق مهندسها

ثمَّ نُقضت جدران تلك الحجرة وأُقيم في مكانها معبدٌ جُعل في باحتهِ ضريح لوسيا بكل اكرام. ثمَّ عادت امها وسكنت القصر بجوار قبر ابنتها الى آخر حياتها

مطبوعات شرقية جديدة

١ كتاب القلادة الذهبيَّة في التأملات الانجيليَّة (ص ٣٣٣)

٢ كشف الستار عن حريَّة الاختيار (ص ٨٧)

للخوري العالم الفاضل جرجس فرج صقير النائب البطريركي الماروني في الاسكندريَّة

طبعا بالمطبعة المصريَّة في الاسكندريَّة سنة ١٨٩٩

اهدانا حضرة الاب الفاضل الخوري جرجس فرج صقير صاحب التآليف الدينيَّة والفلسفيَّة الشهير نسخةً من هذين الكتابين الجديدين فتصفَّحناهما فوجدنا الاول كتاباً